

التربية المعرفية وتطوير القدرة على التعلم :

مرتكزات كفايات مهنة التدريس

عبد العزيز العلوي الأمrani*

تقديم

يحاول هذا المقال إبراز العلاقة الوظيفية بين الفاعلين المركزيين في مختلف وضعيات التعلم بالوسط المدرسي (les situations d'apprentissage) ، يتعلق الأمر أساسا، بالمدرسين وأنشطتهم التدريسية من جهة أولى، وكفايات التعلم (les compétences d'apprentissage) لدى المتعلمين من جهة ثانية. وذلك من خلال الوقوف على رافعة أساسية في عملية التعلم وسيورته ، وهي المعروفة في معظم الأدبيات السيكو- بيداغوجية ، باستراتيجيات التعلم أو طرائق التحصيل والعمل المدرسي ، والتي أصبحت مطلبا هاما في معظم الاتجاهات التربوية المعاصرة، في إطار ما يعرف في معظم الكتابات التربوية المعاصرة بالتربية المعرفية (l'éducation cognitive) ، التي تسعى إلى تحقيق استقلالية المتعلم في أنشطة التعلم ، ودوام التعلم الذاتي للمتعلمين طول الحياة من خلال تمكينهم من استراتيجيات التعلم الفعالة ، وأساليب معرفية لاستقبال المعلومات والقدرة على معالجتها وتخزينها ثم إعادة استرجاعها في وضعيات أخرى، وبالكيفية التي تحقق النجاح في انجاز المهام وحل المشكلات التي تواجههم حاضرا ومستقبلا.

ففي زمن أصبحت فيه المعارف والمعلومات تفيض بمختلف أنواعها وأشكالها، وفي متناول كل راغب فيها بفضل الثورة التكنولوجية والإعلامية، أصبح من الضروري على المؤسسة التربوية الحديثة أن تولي للعمليات الذهنية والقدرات المعرفية عند المتعلم أولوية كبيرة في مناهجها وبرامجها الدراسية. فدراسة وتحديد الاستراتيجيات التعليمية بمختلف أصنافها وأنواعها المعروفة في معظم الأدبيات التربوية، وخاصة تلك المرتبطة بأبحاث علم النفس التربوي سواء منها ما يعرف بالاستراتيجيات المعرفية (les stratégies cognitives) أو الاستراتيجيات الميتمة- معرفية

* - المدرسة العليا للأساتذة / جامعة مولاي إسماعيل مكناس



(les stratégies méta-cognitives)، والعمل على تدريب التلاميذ على استعمالها وتوظيفها حسب طبيعة مهام وأنشطة التعلم ووفقا لخصوصية المواد الدراسية المختلفة، يمكن أن يحقق قفزة نوعية في مجال التعلم المدرسي في بلادنا، حيث ما تزال معدلات الفشل الدراسي مرتفعة جدا.

غير أن تحقيق هذه الغاية رهين بمدى فعالية الكفاية التدريسية، حيث إن مختلف أدبيات الإصلاح التربوي في جل بلدان العالم الغربي، تؤكد على أهمية دور المدرسين في نجاح وتجويد المنظومة التعليمية. فقد أجمعت الدراسات والأبحاث التربوية الحديثة على أن المدرس هو حجر الزاوية في تفعيل ونجاح أو فشل أي مشروع تربوي، وهو واحد من أهم مدخلات العملية التعليمية التعلمية، وأكثرها ضمانا للجودة وتحسين المردودية التربوية. خاصة إذا ما كان تكوينه وتأهيله المهني يواكب الحاجيات والمستجدات الراهنة التي تعبر عن روح العصر الحالي.

و يشكل إصلاح وتجديد الكفايات المهنية للأساتذة، وتحديد كفاية التدريس واحدا من أهم المكونات والعناصر الرئيسية التي يجب إعادة النظر فيها في هذا الصدد، نظرا للارتباط الوطيد بين فعل التدريس وتطوير القدرة على التعلم عند المتعلمين. فمن المعلوم أن أنشطة وأفعال التدريس توجه أساسا لتحقيق وتسهيل عمليات التعلم، وتوفير الشروط والظروف المساعدة والمحفزة لدفع المتعلم إلى إعمال قدراته الذهنية، وتنمية استراتيجيات تعلم فعالة و متطورة في أفق بناء كفاياته التعليمية، وجعله مشاركا وفاعلا في انجاز المهام والأنشطة المدرسية. ومن هذا المنطلق، فإنه أصبح من الواجب الاهتمام بمسألة تكوين وإعداد الكفايات المهنية للمدرسين وخاصة الكفايات التدريسية بهدف جعل الممارسات البيداغوجية والديداكتيكية للمدرس محفزة للتعلم ورافعة له، أو بعبارة أدق، أن يقوم فعل التدريس على منطلق التعلم. فكل أشكال التدخل التربوي للمدرس خلال الأنشطة الصفية يجب أن تكون منظمة ومرتبطة داخل شبكات موجهة للعمل والاستثمار الأكثر لقدرات ومهارات المتعلمين خلال الممارسة التعليمية في كل مادة دراسية.

تطوير القدرة على التعلم في قلب تطور مهنة التدريس :

لقد ساهم انفتاح مجال تكوين المدرسين على خطابات واتجاهات علمية حديثة كعلم النفس المعرفي و علم النفس التكويني والاقتصاد وعلم الشغالة في تبني مقاربات تكوينية جديدة تقوم على مبدأ المهنة (professionnalisation)) بمعنى الرفع من مستوى وأداء مهنية المدرس عبر تمكينه من الكفايات المهنية التي ستساعده في تطوير مهنة التدريس.



الأمر الذي يستوجب، وكما بين ذلك الباحث التربوي مادي على كل برامج التكوين الأساسي والمستمر على حد سواء، خلال عملية تكوين وإعداد المدرسين الانتقال من منطق تعليمي (logique d'enseignement)، حيث يتم التركيز على تلقين محتويات أكاديمية جاهزة، إلى منطق تكويني (logique de formation) يتم التركيز خلاله على بناء الكفايات الضرورية المرتبطة بمهنة التدريس². ومن المعلوم أن جوهر مهنة المدرس هو فعل التدريس، بكل ما يتضمن هذا النشاط من أفعال وأقوال ومواقف يوظفها ويستثمرها الأستاذ في وضعيات التعليم والتعلم بالشكل الذي يخدم تنمية مكتسبات وتعلمات التلاميذ ويزيد من نسبة التحصيل الدراسي لديهم. وعليه فقد غدا تمكين المدرسين من كفايات مهنية/تدرسية مقصدا رئيسيا لكل برامج وأهداف التكوين المهني للمدرسين سواء التكوين الأساسي أو المستمر. ففعالية الكفايات التدريسية للمدرس خلال عملية التدريس لا تعني - في السياق التربوي الحالي- سوى امتلاك هذا الأخير لمجموعة من القدرات والمهارات والاستعدادات التي تجعله شخصا مهنيا متخصصا في تدبير وتنظيم وضعيات التعلم داخل الفصل الدراسي خلال الأنشطة التعليمية التعليمية .

إن الحديث عن مهنية التدريس (la professionnalité de l'enseignement) يعني أساسا قدرة المدرس وتمكنه من مختلف المعارف المهنية الضرورية لمزاولة مهنة التدريس: معارف المادة المدرسة، المعرفة البيداغوجية و الديدكتيكية، تحليل الوضعيات التعليمية، قدرات ومهارات التخطيط والتحليل واتخاذ القرار والتقييم. وهذه المعارف والقدرات جميعها تنتظم في مفهوم جوهري ومركزي وهو مفهوم الكفاية المهنية للمدرس. وعلى الرغم، من أن الإصلاحات والتجديدات التربوية الحالية التي يعيشها النظام التعليمي بالمغرب، والتي بدأت مع صدور الميثاق الوطني للتربية والتكوين (2000)، ثم ما تلاها من ورشات لإصلاح المناهج والبرامج التربوية اعتبرت المتعلم محور العملية التربوية ، فان مختلف وثائق وأدبيات هذا الإصلاح التربوي تؤكد على أهمية دور المدرسين في نجاح وتجويد المنظومة التعليمية. فالمدرس هو حجر الزاوية في تفعيل المشروع التربوي، وتحقيق الغايات التي ينشدها صناع القرار التربوي في كل مجتمع. وهو واحد من أهم مدخلات العملية التعليمية التعليمية، وأكثرها ضمانا للجودة وتحسين المردودية التربوية. خاصة إذا ما كان تكوينه وتأهيله المهني والتربوي يواكب الحاجيات والمستجدات التربوية الراهنة، والتي تعبر عن روح العصر الحالي.

2- مادي لحسن ، 2001 ، تكوين المدرسين، نحو بدائل لتطوير الكفايات، منشورات مجلة علوم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص.7.



وقد أجمعت الدراسات والأبحاث التربوية الحديثة على أن المدرس يعد عنصرا- مفتاحا داخل المثلث البيداغوجي³.

وفي هذا الصدد، أشار التقرير الصادر عن المديرية العامة للتربية والثقافة التابعة للمجموعة الأوربية المشتركة⁴ إلى الأهمية التي يحظى بها الأساتذة في أي إصلاح للنظام التعليمي، كما أشار التقرير إلى أن للمدرسين دورا أساسيا ومركزيا في تعلم التلاميذ. ولهذا أصبح من الواجب عليهم أن يكونوا قادرين على أداء عملهم بكيفية فعالة.

وفي هذا السياق، تزايد الاهتمام في السنوات الأخيرة بمسألة تطوير الكفايات المهنية للمدرسين بفعل التطورات المتلاحقة التي يشهدها العالم . كل هذا سيقود إلى تغير في الهوية المهنية للمدرس. فقد أصبحت الوظيفة التقليدية للمدرس، والمتمثلة في نقل المعارف والمحتويات المدرسية إلى التلاميذ، عملا عديم الفائدة في السياق التربوي الحالي الذي لم تعد فيه المدرسة المكان الوحيد الذي يحتكر المعرفة داخل المجتمع، مما يفرض على المدرسين تغيير طرائقهم البيداغوجية وتطوير قدراتهم ومهاراتهم التعليمية، مع ما يتناسب والتطورات التكنولوجية المتسارعة، والنقلة الكبيرة التي أصبحت تعرفها مختلف مجالات المعرفة والعلوم.

فالمدرس الكفاء حاليا حسب هيرمان (Haberman, M) هو من يتبنى استراتيجيات تعليمية تحقق النجاح للتلاميذ، ويحترم استقلالية وفردانية المتعلمين. خاصة وأن كثيرا من الأبحاث بينت العلاقة الوطيدة بين مميزات ومواصفات المدرس وبين التطور المعرفي للتلاميذ. فإذا ما تم الاتفاق على ضرورة جعل المتعلم في قلب النظام التربوي والتعليمي، والاهتمام أكثر بفعل التعلم، والعمل على تطوير قدرات واستعدادات المتعلم على التعلم. فإن الأمر يتطلب كذلك، لتحقيق هذا الهدف، الاهتمام بتطوير طرائق وأساليب التعليم التي يمكن أن تيسر على المتعلم التعلم. وفي هذا الصدد، أكد 5 (Bru, M) على ضرورة أن يتساءل المهتمون عن الكيفية التي يمكن أن ينجح أو يفشل بها المدرسون في جعل تلاميذهم فاعلين حقيقيين في تعلماتهم. ولهذا

3 -Altet (M)., « Styles d'enseignement, styles pédagogiques » in la pédagogie une encyclopédie pour aujourd'hui, Paris, ESF éditeur, 2005, 6 édition . P.89.

4 -voir. La lettre d'information n : 26 Avril 2007, Transformation du travail enseignant : finalités, compétences et identités professionnelles. Veille scientifique et technologique –Institut national de recherche pédagogique.

5 - Bru (M)., « L'enseignant, organisateur des conditions d'apprentissage » in la pédagogie une encyclopédie pour aujourd'hui, Paris, ESF éditeur , 6 édition.,2005,p.103.



الاعتبار، أصبح التركيز على مركزية مفهوم التعلم في مهنة المدرس يستلزم ويستوجب تطوير وتأهيل كفايات التدريس في الاتجاه الذي يخدم ويسهل تطوير القدرة على التعلم. وذلك عبر الاهتمام أكثر، خلال الأنشطة التدريسية، بتنمية الاستعدادات والقدرات والسلوكيات الضرورية للتعلم في مختلف وضعياته، سواء أثناء التخطيط للوضعيات التعليمية، أو خلال مرحلة تدبير وتسيير أنشطة التعلم، أو في مرحلة تقويم ودعم التعلمات المدرسية .

ومن المعلوم، أنه وبالنظر، للتطور الذي سيعرفه مفهوم التعلم في الكثير من البرامج التربوية والتعليمية في العديد من البلدان العالمية ستتغير أهداف ومقاصد الكفايات المهنية للمدرسين حتى تتماشى مع التصور الجديد لأدوار المتعلم وكفاياته التعليمية. وفي هذا الصدد، تشير الوثيقة التي سبقت الإشارة إليها، الصادرة عن وزارة التربية والتعليم الكندية 2001 إلى ضرورة تطوير الكفايات المهنية للمدرس لكي تواكب التصورات الحالية لمفهوم التعلم، القائمة على جعل المتعلم في قلب العملية التعليمية التعلمية، ومن جهة أخرى، أصبح من الواجب نهج سياسة تعليمية تهدف إلى خلق مدرسة ملائمة لكل التلاميذ. ومنه تتضح أهمية تكوين المدرسين اليوم بالكيفية التي تجعله يلعب دورا هاما ومركزيا في تطوير القدرات الفكرية للمتعلم، وفي هذا الصدد، يؤكد اللقاني⁶ « على ضرورة أن تكون فلسفة وأهداف ومضامين المناهج الدراسية الجديدة مساعدة وموجهة لعمل المدرس من أجل تسهيل تخطيط الخبرات المناسبة للبناء والمرور بها والتفاعل معها بشكل فعال والتعلم منها وفق ما حدد لها من الأهداف، ويرتبط هذا الأمر بنوعية استراتيجيات التدريس، وما يتصل بها من كفاءات المدرس. فهذا الأخير لا يزال هو العامل الحاسم في مدى النجاح في مساعدة المتعلمين على التقدم نحو الأهداف المحددة للمناهج وما تشمله من جوانب تعلم، بما في ذلك المهارات الأساسية. حيث يحتل النشاط المدرسي مكانة هامة في مناهج التعليم الأساسي، والمقصود بذلك أن يكون المتعلم محور كل مواقف التعليم والتعلم تستثمر قدراته العقلية والحركية وما يمتلكه من دوافع التعلم من أجل أن يكون مشاركا في هذه العملية من خلال ادوار يقوم بها تحت إشراف وتوجيه المعلم، وهكذا فإن العملية التربوية تكون موجهة من أجل أن ينشط المتعلم ويتفاعل مع كل مواقف الخبرة بكل طاقته وإمكاناته⁷. لقد أصبح من الواضح إذن، أن كل تكوين مهني فعال للمدرسين عليه أن يجعل من تطوير الكفايات المهنية الخاصة بالتدريس أحد أهم أولوياته الرئيسية، وهي كفايات تدريسية تخدم التصور الجديد لمفهوم المتعلم.

6- اللقاني أحمد حسين، 1995، تطوير مناهج التعليم، مكتبة عالم الكتب، القاهرة. ص.160.

7 - نفس المرجع، ص. 160.



وفي هذا الصدد، يشير دوفلاي (Develay M) إلى أن الكفايات المهنية التي يكتسبها المدرسون تخدم أساسا تصورا محددا لنوعية وشكل التعلم الذي يسعون إلى تحقيقه مع تلاميذهم⁸. وهكذا فإن التوجهات الحديثة في برامج تكوين وإعداد المدرسين، خاصة في البلدان المتقدمة سواء برامج التكوين الأساسي أو المستمر تنبني وتتأسس على قاعدة تمكين الأستاذ من كفايات تدريسية تتمركز وتتمحور حول شخص المتعلم وتركز على فعل التعلم، حتى أنه أصبح من معايير نجاح وجودة فعالية برامج التكوين مدى حضور المتعلم فيها، وذلك من خلال العناصر التالية:

مدى قدرة وتمكن المدرسين من اقتراح وتبني استراتيجيات تدريسية/تعليمية تهدف إلى خلق مناخ يدعم ويشجع على التعلم.

ضرورة أن تتمكن برامج التكوين من مساعدة المدرسين على التشبع والاقتران بمبدأ أن مهاراتهم وكفاياتهم المهنية /التدريسية تؤثر بشكل واضح على عمليات التعلم لدى التلاميذ داخل الفصل الدراسي .

يعمل المدرسون على تدريس مواد دراسية في أبعادها المختلفة المعرفية والذهنية والعاطفية والتحفيز (la motivation) بشكل يؤثر في مستوى ودرجات التعلم وذلك بكيفية تتطلب من المدرسين خلال عمليات التدريس (التخطيط والتنفيذ والتقييم) الأخذ بعين الاعتبار تطوير استراتيجيات متقدمة وعليا للتفكير والتعلم عند المتعلمين.

مدى قدرة المدرسين على تعليم التلاميذ استراتيجيات التعلم الذاتي وحل المشكلات والاشتغال الذهني .

ضرورة إلمام المدرسين بالأساليب البيداغوجية و الديدانكتيكية الحديثة التي تجعل المتعلم مشاركا في عمليات التعلم وبناء المعارف المدرسية و قادرا على التعلم الذاتي.

التربية المعرفية : المدخل الرئيس لفعالية التدريس

ما من شك، أن كل التحولات العديدة التي يعرفها حقل السيكولوجيا ترخي بظلالها على مجال البيداغوجيا ، من حيث هي نظرية - تطبيقية لتدبير وتطوير الوضعيات التعليمية التعلمية ، والرفع من الفعالية الداخلية والخارجية للمنظومة التعليمية . إن العلاقة الوظيفية بين مجال البحث السيكولوجي المعرفي من جهة، وامتداداته العملية داخل الميدان التربوي

8 -Ministère de l'éducation, gouvernement de Québec, 2001 , La formation à l'enseignement : les orientations les compétences professionnelles, p.67



من جهة أخرى قائمة وثابتة، وهي العلاقة التي أكدها المفكر التربوي جان بياجي (Piaget.J)، الذي بين أن المناهج البيداغوجية والديداكتيكية الجديدة والبرامج المدرسية تتطور وتتجدد بناء على تطور وتجدد معطيات البحث السيكولوجي، وخاصة سيكولوجية الطفل 9. ففي وضعيات التعليمية التعلمية المختلفة داخل الوسط المدرسي، يحاول المدرسون دفع المتعلمين إلى الاكتساب والتحصيل، والأهم من كل هذا القدرة على التعلم من خلال توفير شروط مناسبة بيداغوجيا وديداكتيكا ببناء تعلماتهم. وهو الأمر الذي يستلزم منه فهم الآليات والميكانيزمات التي يتعلم بها وعبرها المتعلمون. وهو الأمر الذي يقودنا مباشرة إلى الحديث عن استراتيجيات التعلم وطرائق العمل الدراسي.

فمن المعروف في مجال سيكولوجيا التعلم (la psychologie d'apprentissage) أن كل متعلم يحاول جادا، وبما توفر لديه من رصيد معرفي ومنهجي، انجاز وحل المهام والأنشطة الدراسية. وهو بذلك يلج الوضعية التعليمية برصيده المعرفي، سواء كان ضعيفا أو غنيا من الاستراتيجيات التعليمية التي تعود على توظيفها بطريقة غير واعية ومباشرة. ففي إطار التربية المعرفية (l'éducation cognitive)، أصبح من المطلوب على المدرسين، اغناء رصيد المتعلمين وتدريبهم على الإنجاز الفعال والجيد يتطلب توظيف واستعمال استراتيجيات التعلم الفعالة والمناسبة للوضعية والنشاط المراد انجازه. وهو ما سيمكن المنظومة المدرسية من الانتقال من التعلم الميكانيكي (l'apprentissage Mécanique) إلى تعلم دال، ذو معنى وظيفي عند المتعلم (l'apprentissage significative).

التربية المعرفية والتعلم الاستراتيجي :

إن الغاية من وراء استثمار مجلوبات التربية المعرفية في العملية التعليمية التعلمية، هي تكوين متعلم استراتيجي (un apprenant stratège)، يمتلك رقيدا غنيا من الاستراتيجيات المعرفية، ويوظفها بكفاءة في وضعيات التعلم وحل المشكلات التي تواجهه في السياق المدرسي. فما العلاقة بين التربية المعرفية واستراتيجيات التعلم؟

إن التطور الذي شهدته الدراسات السيكولوجية في العقود الأخيرة، وخاصة في المجتمع الأمريكي في مجال علم النفس المعرفي (la psychologie cognitive) واكبها اهتمام كبير بالجانب المعرفي في دراسة ومحاولة فهم سلوك الأفراد، وسبر أغوار شخصيتهم الخاصة. ومن هنا فان الاهتمام بالأبعاد المعرفية في شخصية الإنسان كان بمثابة المدخل العلمي عند علماء النفس المعرفي لإبراز وتبيان طبيعة الفروق الفردية بين الأفراد و مستوى تمايزهم السيكولوجي (Différenciation psychologique). فبدأ الحديث عن الأسلوب المعرفي



للفرد، و الطريقة المعرفية، ثم الإستراتيجية المعرفية التي تميز كل فرد عند قيامه بمهمة محددة، أو حل المشكلات التي تعترضه. فالاستراتيجيات المعرفية من هذا المنطلق، هي بمثابة مؤشر خاص يميز كل فرد في طريقة استقباله وإدراكه للمعلومات والمواقف. فمن اللازم إذن أن يختلف الأفراد في إدراكهم وفهمهم للوضعيات وللمواقف التي تواجههم. ومن الأكيد أنهم سيختلفون أيضا في ردود أفعالهم تجاه هذه المواقف¹⁰. لقد أصبح مفهوم الاستراتيجيات المعرفية مفهوما مركزيا في الدراسات والأبحاث الحديثة في مجال علم النفس المعرفي، وخاصة تلك المتأثرة بنموذج نظام معالجة المعلومات.

لقد أصبح هذا المجال العلمي في السنوات الأخيرة، ينكب على محاولة فهم وتحليل الإجراءات والمسارات الداخلية لمعالجة المعلومات لدى الكائن الإنساني. ثم كيفية إعادة إنتاج هذه الإجراءات التعليمية، فنشاط التعلم يقوم أساسا على معالجة المعلومة¹¹. فالدراسات السيكولوجية التي اهتمت بالعمليات المعرفية وتطبيقاتها فيما يتعلق بالفروق الفردية بين المتعلمين تركز على مبدأ أساسي مفاده أن معرفة الأسلوب المعرفي الذي يميز كل فرد متعلم قد يسهم _ وبدرجة كبيرة _ في توفير أفضل الطرق والوسائل التدريسية الملائمة والظروف التنظيمية المناسبة لفئة محددة من المتعلمين.

يشير الباحثان (Weinstein et Mayer,1986) إلى أنه في الفترة الأخيرة حصل تطور كبير في اتجاهات الاهتمام باستراتيجيات التعلم. فبعد فترة من الاهتمام بمعرفة الطريقة والكيفية التي تؤثر بها أساليب عرض المادة التعليمية على سلوك المتعلم، تحول الاهتمام إلى محاولة فهم الكيفية التي تتم بها المعالجات الذهنية للمادة المعرفية المقدمة، وكيف تتم عملية بنيتها وحفظها في الذاكرة. فمن الواضح أن هذا التحول يعكس في جانب مهم منه التحول الذي عرفته الأبحاث السيكولوجية من المنظور السلوكي للتعلم إلى الأخذ بالمنظور المعرفي¹². غير أن الذي يجب التنبيه إليه، أن هذه المقاربة المعرفية لم تأت متمركزة حول النمو كما هو الحال مع النظرية المعرفية التكوينية لبياجى (J. Piaget) ، بل جاءت بالاشتغال الذهني

10 - مزيان محمد، الأسلوب المعرفي : الاعتماد - الاستقلال عن المجال وعلاقته بالتحصيل الدراسي، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، 1994، كلية علوم التربية، الرباط. ص.17

11 - Tardif (J)., 2007, pour un enseignement stratégique L'apport de la psychologie cognitive, Québec Canada, les éditions logiques. p.15

12- هلو عبد الله، الاستراتيجيات التعليمية، مجلة التنشئة، المجلد الثاني ، العدد:4، 2007، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص.32



للمتعلم ، باعتبار التعلم هو تغيير في المعارف، وليس تغييرا في السلوكات، أي سيرورة داخلية تحدث في ذهن الفرد. إن التعلم يكون تابعا للمعارف السابقة لأنها هي التي تحدد ما يمكن أن يتعلمه الفرد13.

كما يشير أسطلفي (Astolfi) 14 إلى أن الحديث عن أساليب وطرائق التعلم (les styles d'apprentissage) ترتبط بشكل أساسي بأعمال وأبحاث السيكلوجيين المعرفيين في أمريكا الشمالية خاصة أعمال كل من (Hill Lamontagne et)، فقد بين الباحثان أهمية نظام الفرد في عملية التعلم، فلكل فرد أسلوب خاص في توجيه تعلمه، وهو ما أسماه الباحثان بـ « النظام الفردي في قيادة التعلم» وهو ما يعرف اختصارا بـ (S.P.P.A)، وهو يعني قدرة الفرد على امتلاك أساليبه وطرائقه الخاصة به في عملية التعلم. مع العلم أنه ليس هناك طريقة أفضل للتعلم أو لحل المشكلات. فكل الأفراد مختلفون فيما بينهم، لكنهم يتكاملون، انطلاقا من المبدأ الذي يقول: إن الفرد يتواجد وتتواجد معه شخصيته المعرفية الخاصة به (personnalité cognitive)، والتي تكونت عبر تاريخه الثقافي والعاطفي والاجتماعي15. لقد وظف مفهوم الإستراتيجية في الأبحاث السيكلوجية التي تناولت موضوع الأنشطة المعرفية المرتبطة بمجال الذاكرة، للدلالة على مجموع الأنشطة الذهنية التي يقوم بها الفرد من جهة، و كذلك لوصف الطريقة/ المنهجية التي يتبعها المتعلم في اكتساب واستيعاب المعارف والمعلومات.

أما بخصوص الدراسات والأبحاث السيكلوجية المعرفية، المتأثرة بنظرية معالجة المعلومات، فهي تحدد مفهوم الإستراتيجية باعتبارها مجموعة من الإجراءات المعرفية التي يوظفها الأفراد، بما في ذلك قدراتهم على الضبط والتحكم في مسار العمليات الذهنية أثناء القيام بمهام محددة، من انجاز مختلف عناصر المهمة وتخزين المعلومات وحفظها، ثم إعادة توظيفها في وضعية مشكلة. كما تشمل الإستراتيجية قدرة المتعلم على إيجاد علاقة بين المعطيات الجديدة في وضعية تعلم معينة، والمعارف المخزنة في الذاكرة وتكوين معارف

13 - الخديمي رشيد، استراتيجيات التعلم، مجلة علوم التربية، المجلد الثالث، العدد 24، مارس 2003، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء. ،ص.90

14 - Astolfi (J.P)., « style d'apprentissage et modes de pensée » in la pédagogie une encyclopédie pour aujourd'hui, Paris, ESF éditeur, 2005, 6 édition .p.301

15 - Ben el azmia Allal., Stratégies d'apprentissage et l'évaluation du système d'enseignement, thèse de Doctorat d'Etat en sciences de l'éducation, 2004/2005, Faculté des sciences de l'éducation, Rabat .p.62



جديدة. فالاستراتيجيات بهذا المعنى تشكل مخططات معرفية للعقل توظف بهدف تطوير ملكات التذكر، والحفظ، وحل المشكل والتعلم. ومن جانب آخر، تبدأ الإستراتيجية بتحديد المهام المطلوب انجازها والتخطيط للأنشطة وصولاً إلى الانجازات وتقييم نتائج العمل. فالإستراتيجية بهذا المعنى، تقوم مكوناتها البنوية على عنصر الاختيار واتخاذ القرار إلى جانب القدرة على المراقبة والتنسيق بين الإجراءات التي يقوم بها الفرد من الوضعية المنطلق وحتى الوضعية الهدف.

ففي إطار انجاز المتعلم للمهام المتعلقة بالتذكر والفهم والتعلم يوظف استراتيجيات مختلفة انطلاقاً من تجاربه ومعارفه الداخلية من أجل التقليل من الكلفة في الجهد، والزيادة من مستوى النتائج والانجازات، كعملية ترتيب وتصنيف المعلومات حسب معايير ذاتية أو موضوعية. فدراسات وأبحاث كل من (Kobaisigow,1977, Moely,1977) بينت أن لجوء الأفراد إلى إستراتيجية التكرار الذهني مثلاً عمل مكلف من الناحية الذهنية، كما بينت تجارب كل من الباحثين (Flavell et Welman 1977) أنه بقدر ما يوظف الفرد مهارات محددة (اختيار واستعمال إستراتيجية معينة دون أخرى) بقدر ما يتحكم ذلك في مستوى الانجازات التي يقوم بها. كما تظهر التجارب الميدانية أيضاً أن المعارف الداخلية للفرد وتجاربه السابقة تتحكم بشكل كبير في عملية اختياره لنوع محدد من الاستراتيجيات واستعمالها حسب طبيعة الوضعيات التي يواجهها.

إن لجوء الفرد إلى استعمال وتوظيف استراتيجية محددة دون غيرها، يرتبط أساساً بالفائدة التي يسعى إلى تحقيقها من وراء هذه الإستراتيجية، كما ترتبط كذلك بعامل التحفيز والتعزيز الذي يدفع الأفراد إلى تبني استراتيجيات بعينها. وفي هذا الصدد، حدد كل من الباحثين (Fayol et Monteuill) ثلاثة متغيرات تتحكم في هذا الاختيار، وهي الآتي :

- أن يدرك الفرد أنه قادر على الرفع من مستوى أدائه؛
- أن المهمة المطلوبة تتطلب استعمال استراتيجيات محددة؛
- أن تكون هناك تغذية راجعة تمكن من وضع تصور محدد حول العلاقة بين استعمال إستراتيجية محددة والرفع من مستوى الأداء؛

غير أن دراسات أخرى، بينت أن الأفراد يميلون إلى تغيير استراتيجياتهم المعرفية من موقف تجريبي لآخر بحيث يكون من النادر أن يقتصر الفرد على إستراتيجية معرفية دون غيرها،



كما يتبين أن أفضل الأفراد أداءاً هم أكثرهم مرونة في انتقاء الإستراتيجية التي يعتمدونها والاختيار فيما بينها¹⁶.

وفيما يلي نورد بعض التعاريف التي قدمت لمفهوم الإستراتيجية المعرفية والتي تطابق مفهوم إستراتيجية التعلم.

يعرف (Weinstein et Mayer,1986) الإستراتيجية المعرفية باعتبارها « أنماط السلوك والأفكار التي يستخدمها المتعلم خلال عملية التعلم بهدف التأثير على عملياته الذهنية التمثيلية ويقدم كمثال على ذلك: إعادة كتابة ما يطلب تعلمه أو تلخيصه، أو إعادة تنظيمه، أو تكوين صورة ذهنية عنه، أو طرح أسئلة على النفس بشأنه».

ويقدم كل من (Siegler et Jenkins,1989) تعريفاً لا يختلف كثيراً عن التعريف السابق، وقد تبناه الكثير من المهتمين: « الإستراتيجية المعرفية تطلق على أي إجراء اختياري يتم اعتماده لبلوغ هدف محدد. »

ويعرف (Brown et al,1983) الإستراتيجية التعليمية بأنها تطبيق مقصود ومنهجي لخطط وإجراءات نمطية أو أنشطة بغرض الرفع من مستوى التعلم.

أما (Yongqi Gu) فيرى أن الإستراتيجية التعليمية عملية دينامية يشكل السعي نحو إيجاد حل لمشكل مطروح جوهرها، وتقتضي تعاقب الإجراءات التالية :

- الانتباه الانتقائي ،
- تحليل المهمة ،
- اتخاذ القرار المناسب ،
- انجاز المخطط المرسوم ،
- تتبع مسار الانجاز وإدخال التعديلات عند الضرورة ،
- تقويم النتيجة ،

يعرف لومير (Lemaire,P) إستراتيجية التعلم باعتبارها إجراء أو مجموعة الإجراءات التي تمكن المتعلم من الوصول إلى الهدف الذي يسعى إليه.



يعرف الباحث بن العزيمة 17 الإستراتيجية المعرفية باعتبارها سلسلة من الإجراءات التي يقوم بها الفرد من الوضعية المنطلق إلى الوضعية الهدف، وهو ما يفرض على الفرد تخطيطاً للأنشطة، وكذلك ضبط ومراقبة هذه الإجراءات. ويعتبر أن استراتيجيات التعلم تشكل معبراً ضرورياً لتكوين وبنينة وإنتاج المعارف والكفايات. وتتمثل أهم المكونات والخصائص المميزة لاستراتيجيات التعلم على الشكل التالي:

- مستوى الوعي والانتباه لدى الفرد/ المتعلم خلال عملية التعلم ؛
- الاستعدادات الخاصة بالمتعلم وعاداته السابقة في التعلم ؛
- درجة الفائدة والتحفيز لدى المتعلم اتجاه ما يتعلمه ؛
- المراقبة والضبط الذي يقوم به الفرد/ المتعلم على مساره التعليمي ؛

إن مسار التعلم، هو في طبيعته نشاط معرفي استراتيجي، و يشمل هذا النشاط مختلف الخطوات والإجراءات التي يقوم بها الفرد/ المتعلم من أجل بلوغ مستوى معين من الانجاز، عبر اعتماده على استراتيجيات التصور و معالجة المعلومات وجمعها وتنظيمها ثم تخزينها، وإعادة استرجاعها عند الضرورة.

يستفاد من مجموع التعاريف السابقة التي أعطيت لمفهوم إستراتيجية التعلم في مجال السيكولوجيا المعرفية تأكيدها على البعد الوظيفي لهذا المفهوم، أي البعد الإجرائي والعملي للإستراتيجية التعليمية ومن هنا فإن استراتيجيات التعلم هي في حقيقة الأمر، قدرات داخلية، و أنشطة ذهنية منظمة وواعية لا يمكن رؤيتها بشكل مباشر، لكن يستدل عليها من خلال طابعها الإجرائي، والمتمثل في الأسلوب أو الطريقة التي تتبع من قبل الفرد المتعلم خلال عملية التعلم. وعليه يمكن القول: إن الأسلوب المعرفي (le style cognitif) هو الترجمة الإجرائية والعملية لمفهوم إستراتيجية التعلم. أو يمكن اعتباره من المفاهيم المتجاورة للإستراتيجية التعليمية، حيث يعد هو الآخر، من المفاهيم الحديثة في مجال الأدبيات السيكولوجية المعاصرة التي حاولت فهم وإدراك وقياس العمليات المعرفية وتطبيقاتها العملية في المجال التربوي. وهو ما يتجسد في الفروق الفردية بين الأفراد المتعلمين. وعلى هذا الأساس، أكد علماء علم النفس المعرفي على حقيقة مؤداها، أنه بقدر ما يتمكن المرءون من إدراك طبيعة ونوعية الأسلوب المعرفي الذي يميز فئة محددة من الأفراد المتعلمين، بقدر ما يساعد ذلك في برمجة وتهيء شروط



وظروف تعليمية أفضل لتسهيل عمليات التعلم لدى هذه الفئة. وهو الأمر الذي قاد إلى ظهور البيداغوجيا الفارقية.

التربية المعرفية والتدريس الاستراتيجي :

تشير الدراسات السيكولوجية المعرفية إلى أن النظام المعرفي للمتعلم لا يتضمن فقط معارف قارة وثابتة، بل يشمل أيضا معارف دينامية ومتجددة، يكتسبها من خلال استراتيجيات التعلم المعرفية والميتا-معرفية. فالاستراتيجيات تشكل بالنسبة للمتعلم المفتاح الأساس لاكتساب المعارف المدرسية وتوظيفها في وضعيات جديدة. بل لقد اعتبرت بعض الأبحاث التربوية الحديثة أنه بين مفهوم الاستراتيجيات ومفهوم المعارف علاقة تكاملية.

ففي مجال علم النفس المعرفي الحديث، كثيرا ما يتم استعمال مفهوم الاستراتيجيات للدلالة على المعارف المدرسية الثلاث: المعارف التصريحية، المعارف الإجرائية، والمعارف الشرطية/ السياقية¹⁸. يقوم المتعلم خلال عمليات التعلم باستعمال، و بشكل وظيفي، المعارف المكتسبة، كما يطور مجموعة من الاستراتيجيات المعرفية والميتا- معرفية .

ومن جهة أخرى، يرتبط كل نوع من أنواع المعارف المدرسية المختلفة باستراتيجيات متعددة. ففي مجال الرياضيات مثلا يلجأ المتعلمون إلى استراتيجيات مختلفة في عمليات الحساب، ويميل كل متعلم إلى اعتماد إستراتيجية للعد والحساب بين رقمين بالكيفية التي تسهل عليه عملية الاكتساب والتحصيل. وفي مجال قراءة النصوص يميل المتعلمون إلى اعتماد استراتيجيات تعلم قد تختلف من متعلم لآخر بحسب طبيعة ونوعية الصعوبات التي قد يواجهها كل متعلم. وكذا بحسب طبيعة النصوص المقدمة للمتعلم، هل يتعلق الأمر بنصوص سردية؟ أم بنصوص إخبارية، فلسفية، تاريخية... الخ؟ كما تتباين هذه الاستراتيجيات المعتمدة من قبل المتعلمين حسب الغرض والهدف المراد تحقيقه من قبل كل متعلم. ومن هنا يمكن القول، إن فعالية كفاية التدريس عند المدرس تظهر بوضوح عندما يقوم بعملية توجيه وإرشاد المتعلم نحو التمكّن الفعلي والحقيقي من المعارف المدرسية بمختلف أنواعها وأشكالها من خلال ضبط المتعلم والتمرن الفعلي على الاستراتيجيات التي تسهل اكتساب هذه المعارف. وهو الأمر الذي لا يتأتى للمدرس إلا عندما يكون هذا الأخير متمكنا من كفايات التعليم الاستراتيجي حيث يتحول دور المدرس إلى وسيط، وموجه، ومدرب للمتعلم على كيفية تطوير وتوظيف طرائق الاشتغال الذهني والمعرفي عند المتعلم الذي يلعب دور الفاعل الحقيقي والمسؤول عن التعلم.

ويمكن تلخيص الخطوات والإجراءات التي يجب على المدرس الاستراتيجي القيام بها واتباعها

18 - Tardif (J), 2007, op.cit.p.43.



لتيسير اكتساب المتعلم تعلمًا استراتيجيًا في الآتي 19 :

تحديد موضوع التعلم (المهام المراد إنجازها): يقوم المدرس بتقديم موضوع التعلم والتعريف به، وتحديد مراحل الانجاز ويبين الوضعيات التي ستساهم في تبيان الفائدة من التعلّات المنجزة.

توجيه المتعلم نحو التمكن من المعارف، وهو ما يتطلب من المدرس توفير وإعداد دعائم متنوعة للمتعلمين، كما يساعد المدرس المتعلمين من اجل تحديد مؤشرات الانجاز والتساؤل معهم حول المهام المطروحة، ومساعدتهم على تشخيص الصعوبات والعراقيل التي قد تواجههم أثناء قيامهم بانجاز مهام التعلم. وهو بذلك يلعب دور الوسيط بين المتعلم من جهة، وموضوع التعلم من جهة ثانية. ويقوم بتحفيز وتشجيع المتعلم ليصبح فاعلا نشيطا، ويدفع به إلى التعبير وبشكل لفظي عن كل ما يجول في رأسه وما يفكر فيه. وما يعتزم القيام به من إجراءات وأعمال لإيجاد حل للمشكلة التي تطرحها المهمة المراد إنجازها. كما يقدم له الدعم والمساندة المنهجية على شكل تغذية راجعة تجعل المتعلم يتساءل عن مدى فعالية وجدوى الإجراءات والأفعال والخطوات التي يقوم بها منذ وضعية الانطلاق والى غاية وضعية الوصول.

إفساح المجال للممارسة الاستقلالية في التعلم: بقدر ما يقل تدخل المدرس في السيرورة التعليمية التعليمية ويكتفي بدور الوسيط (médiateur) والإرشاد والمرافقة الإستراتيجية وتوفير الموارد والدعائم الضرورية للعمل، بقدر ما تزداد استقلالية المتعلم. ويزداد مستوى اعتماده على ذاته في انجاز تعلماته. غير أن ذلك لا يعني إحجام المتعلم وبشكل قطعي عن طلب المساعدة والدعم عند الحاجة. حيث يتوجب على المدرس أن يبقي على مختلف أشكال التواصل البيداغوجي مع المتعلم. بل إن هذا النوع من التعليم يجعل التواصل التربوي بين طرفي العملية التعليمية التعليمية تواصلا حقيقيا لأنه ينبنى على أساس الحاجة والفائدة (l'intérêt) والرغبة في التعلم بشكل ذاتي. فالمتعلم هو من يبادر بشكل حر إلى طلب الدعم والتوجيه لأنه يشعر بالحاجة الداخلية إلى ذلك. مما يضفي على هذا النمط من التعليم الاستراتيجي طابع الوظيفية.

بناء على كل ما سبق ، يتبين أن تجويد وإصلاح مهنة التدريس ، يبدأ أولا من استثمار معطيات ومجملات التربية المعرفية داخل الممارسات التدريسية للمدرسين . وهو ما سيجعل النشاط التعليمي يتمحور حول المرافقة الإستراتيجية (l'accompagnement stratégique) للمتعلمين. فبدلا من المنظور البيداغوجي التقليدي ، و الذي كان يلزم المتعلمين بمرافقة

19- الجابري عبد اللطيف، 2009، إدماج وتقييم الكفايات الأساسية، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء. ص.90.



الإيقاع التدريسي للمدرس، دون أن يكون ثمة وعي بالاختلافات والفروق بين منطق واليات التعليم من جهة ، وطبيعة ووتيرة التعلم وطرائقه من جهة أخرى . غدا من الضروري ، أن يرافق المدرس المتعلم في مختلفة محطات ومراحل تعلمه خلال كل وضعية تعليمية- تعلمية (situation d'enseignement-apprentissage). وتمكينه من تجاوز تعثرات والصعوبات التي قد تواجهه لحل المشكلات وانجاز المهام من خلال تدريبيه على مساءلة آليات اشتغاله، واغناء رصيده الذهني بكفايات منهجية فعالة (les compétences processus efficaces) التي تعتبر مفتاح النجاح المدرسي.

قائمة المراجع المعتمدة :

باللغة العربية :

- مادي لحسن ، 2001 ، تكوين المدرسين، نحو بدائل لتطوير الكفايات، منشورات مجلة علوم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.
- اللقاني أحمد حسين، 1995، تطوير مناهج التعليم، مكتبة عالم الكتب، القاهرة.
- مزيان محمد، الأسلوب المعرفي : الاعتماد - الاستقلال عن المجال وعلاقته بالتحصيل الدراسي، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، 1994، كلية علوم التربية، الرباط.
- هلو عبد الله، الاستراتيجيات التعليمية، مجلة التنشئة، المجلد الثاني ، العدد:4، 2007، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.
- الخديمي رشيد، استراتيجيات التعلم، مجلة علوم التربية، المجلد الثالث، العدد:24، مارس 2003، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.
- الجابري عبد اللطيف، 2009، إدماج وتقييم الكفايات الأساسية، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

2. باللغة الفرنسية :

- Tardif (J)., 2007, pour un enseignement stratégique L'apport de la psychologie cognitive, Québec Canada, les éditions logiques.



- Piaget (J), 1969, Psychologie et pédagogie, Editions Denoël/ Gonthier , Coll Folio/essais Paris.
- Ben el azmia Allal., Stratégies d'apprentissage et l'évaluation du système d'enseignement, thèse de Doctorat d'Etat en sciences de l'éducation, 2004/2005, Faculté des sciences de l'éducation, Rabat .
- Bru (M)., « L'enseignant, organisateur des conditions d'apprentissage » in la pédagogie une encyclopédie pour aujourd'hui, Paris, ESF éditeur , 6 édition.,2005,
- Ministère de l'éducation, gouvernement de Québec, 2001 , La formation à l'enseignement : les orientations les compétences professionnelles.
- Altet (M)., « Styles d'enseignement, styles pédagogiques » in la pédagogie une encyclopédie pour aujourd'hui, Paris, ESF éditeur, 2005, 6 édition.
- Astolfi (J.P)., « style d'apprentissage et modes de pensée » in la pédagogie une encyclopédie pour aujourd'hui, Paris, ESF éditeur,2005, 6 édition .
- La lettre d'information n : 26 Avril 2007, Transformation du travail enseignant : finalités, compétences et identités professionnelles. Veille scientifique et technologique –Institut national de recherche pédagogique.

